انسانيا . لذا لا يعود « خروج » محمود درويش من الارض المحتلة هو المحك لقياس شاعريته ، بل المحك هو في استمرارية تجربة الشاعر النضالية ، وفي ارتقاء شعره فنيا . فيغدو تقويمنا لقضية خروج الشاعر معتمدا على هذين العنصرين اللذين هما في حقيقتهما وجهان لحقيقة واحدة . فتصبح عودتنا الى نتاج محمود درويش الشعري أساس حكمنا عليه ، فننظر كيف أثرت الفترة التي عاشها خارج الارض المحتلة في تجربته النضالية ، وكيف تجلت هذه التجربة في صورتها الفنية ؟ وهل يشكل ديوانه الاخير « أحبك أو لا أحبك » ، الذي كتب قصائده بعد خروجه ، تطورا في مسيرته الشعرية ؟ وكيف ؟

انبثقت تجربة محمود درويش النضالية والفنية من قضية طرحها بقوله : « كيف أوفق بين شق الطريق أمام الكلمة لتمارس مفعولها بين الجماهير بصفتها كلمة ثورية من ناحية ، وبين متطلبات الشروط الفنية المتطورة لهذه الكلمة ؟ »(١٩) . هنا يطرح الشاعر قضية الالتزام في الادب : فالشاعر الملتزم يسعى الى ايصال نتاجه للجماهير شرط ألا يضحي بالمستوى الفني لهذا النتاج . كيف عالج محمود درويش هذه القضية ، وكيف تطورت نظرته اليها خلال مسيرته الشعرية ؟

تقع مسيرة محمود درويش الشعرية ، على ما أرى ، في مراحل ثلاث : تشمل الاولى الفترة التي سبقت حرب حزيران . وتمتد الثانية في السنوات التي تلت الحرب وحتى قرار الشاعر بالخروج نهائيا من فلسطين المحتلة . وتتمثل الثالثة — التي تمتد حتى اليوم — في المدة التي قضاها خارج الوطن المحتل ، وجاء ديوانه الاخير « أحبك أو لا أحبك » صورة عنها .

أصدر محمود درويش في المرحلة الاولى مجموعات شعرية ثلاث هي : « عصافير بلا اجنحة » عام ١٩٦٠ ، و« أوراق الزيتون » عام ١٩٦٤ ، و« عاشق من فلسطين » عام ١٩٦٦ . وشهدت هذه المرحلة انضمام الشاعر الى الحزب الشيوعي في عام ١٩٦١ ، بعد أن قرأ مبادىء الماركسية وتأثر بها : « وصرنا نقرأ مبادىء الماركسية التي أشعلتنا حماسا وأملا ، وتعمق شعورنا بضرورة الانتماء الى الحزب الشيوعي الذي كان يخوض المعارك دفاعا عن الحقوق القومية ودفاعا عن حقوق العمال الاجتماعية . وحين شعرت اني أملك القدرة على أن أكون عضوا في الحزب دخلت اليه في عام ١٩٦١ ، فتحددت معالم طريقي وازدادت رؤيتي وضوحا وصرت أنظر الى المستقبل بثقة وايمان . وترك هذا الانتماء آثارا حاسمة على سلوكي وعلى شعري »(٢٠) .

ولكن التزام الشاعر سبق انضمامه الى الحزب الشيوعي ، اذ انعكس هذا الالتزام في ديوانه الاول « عصافير بلا أجنحة » الصادر قبل سنة من تاريخ انتماء الشاعر الحزبي . وقد عبر محمود درويش في هذا الديوان عن تجربة هي وليدة « الحب .. والعذاب .. والكفاح .. والثورة .. والالم .. والنداء المبحوح القادم من البعيد .. من البعيد .. »(٢١) فاختص جانبا من قصائد الديوان بالقضية النضالية ، وأفرد الشاعر الجانب الاكبر من قصائده للغزل . وظلت قصائد الديوان ، وبخاصة ما ارتبط منها بالقضية النضالية ، خطابية مباشرة ، التزم فيها الشاعر عمود الشعر الكلاسيكي ، كقوله مثلا :

لا تلمني ! اشعل الحقد دمي ... وحنيني في عروقي يتضخم !
لا تلمني انها ارضي تبكي ... أطيق الصمت والام تالم ؟!
انها أمي ولا اعرفها ... ايها الافق الذي حولي تضرم
انا جيل لست وحدي ثائرا ... قد تعاهدنا على ان نتقدم !

لكن الانتماء الحزبي انتقل بالشاعر ، على حد تعبيره ، من « سمة (الثوري الحالم)